الموسم

معنى التاريخ في الفكر الإسماعيلي[١]

الدكتور عادل العوا

يقول (اتيين جلسون)، الفيلسوف المعاصر، أن التاريخ في الواقع تاريخان: تاريخ ما حدث، وتاريخ ما يروى، وإن كنا لا نملك سوى كلمة واحدة للدلالة عليهما. وذاك أشبه بكلمة «فيزيا» التي قد تدل بأن واحد على الطبيعة وعلى علمنا بها. ولئن كان الذين يجهلون الفيزيا. العلم يرون الطبيعة بأبصارهم، فإن التاريخ يفر من المشاهدة، لأن تاريخ ما حدث فعلاً لا يوجد بالنسبة إلينا إلا في التاريخ الذي يرويه، ونحن لا نروي التاريخ إبان وقوعه.

وإنما نرويه. أي نخترعه. بعد وقوعه. ولذا فإن التاريخ يخترع موضوعه اختراعاً، ويرممه، ويصنعه صنعاً، وإذا أحسن التاريخ الصدق اعتز بأنه يعيد خلق الماضي كما يراه هو من زاويته الخاصة.

غير أن (جان جاك روسو)، الأديب الفيلسوف، يرى أن الفرضيات الذهنية عن التاريخ هي أصدق من التاريخ، وتمتاز بأنها معقولة على نحو أعظم، ولذا نجده ينطلق من فرضية حال يسميها حال الطبيعة، ويرى أنها فرضية عقلية تدع الحقيقة التاريخية جانباً، وهي في نظره أعظم يقيناً من وقائع التاريخ، ويستخلص منها أن الإنسان الطيب بالطبع غدا شريراً بالاجتماع، وأن عقداً اجتماعياً أولياً مفترضاً هو الذي أقام نوعاً من المشاركة الاجتماعية تمكن المرء من أن يظل حراً لا يطيع إلا نفسه ويؤلف في الوقت ذاته جزأ لا يتجزأ من المجتمع. وقد حسب (روسو) أن تخميناته أفضل مما تنتهي إليه نتائج البحث التاريخي المؤيد بالوثائق وبالنقد الداخلي والخارجي وبالتفسير الموضوعي في ضوء معطيات العلوم المساعدة وتاريخ ما قبل التاريخ..

ولم يحجم (هجل) عن تأكيد أن الجدل والتاريخ شكلاً حقيقة واحدة ووجها واقعاً واحداً وأن (الفكر) أو (الروح) هو الاتجاه الباطني لنشاط الواقع الذي يجرى بانطلاق (الفكر) من وحدته الأولى وانتشاره في طباقه وهو (الطبيعة) المتعددة الأشكال وارتداد (الفكر) إلى ذاته عندما تصبح (الطبيعة) (روحا) حتى يعي (الفكر) أو (الروح) ذاته في تمام وحدته. وما صيرورة (الروح) إلا حركة تاريخية عميقة كبرى تتحقق بجهد وألم وحتمية خلال مراحل التاريخ كلها

(١) بحث قدم للمؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الذي عقد في الجامعة الأردنية. عمّان في ٢٠ - ٢٥ (سنة ١٩٧٤).
اتيين جلسون: مدرسة الالهات. ترجمة د. عادل العواد دمشق ١٩٦٥ ص٥٠.

وفي مختلف أشكال المجتمع، لأن تلك الصيرورة هي سير الله خلال (التاريخ)، ومن هذه المذهبية الجدلية، أو الملحمة التاريخية المنطقية يخلص فيلسوف المثالية المطلقة إلى أن الحركة التاريخية غزو الحرية، وإنها تنتهي إلى دولة طاغية يترتب على المرء أن يعتبر نفسه فيها حرا ما دامت الدولة، وهي القائد الضخم. تسعد بتحقق الصيرورة العظمى، ويتجلى الروح المطلقة، وذاكم هو الغرض الأقصى من تطور الكون.

ومن الجلي أن الماركسية، بانتقالها من «الجدلية المادية» إلى «الجدلية التاريخية» ترى أن الحقائق من صنع الإنسان، من صنع التاريخ، وأن تاريخ العالم المزعوم ليس بأسره إلا «نتاج الإنسان بالعمل الإنساني». والإنسان يخلق ذاته بصورة اجتماعية إذ يخلق العالم والتاريخ. وما الأفكار سوى نتاج الشروط الاقتصادية، أي الشروط المادية، وهي أساس التطور التاريخي. وبنية المجتمع الإنساني، وإنما الجماهير الكادحة (البروليتاريا) هي صانعة التاريخ، بكفاحها العملي، وبتحقق دولة البروليتاريا، بل ديكتاتوريتها، ولو في صورة مرحلية تؤدي آخر الأمر إلى ما ينشد البشر من عدالة في الأرض...

إن الكلام على تاريخ فلسفة التاريخ يطول، وهو كلام مذهبي يسوق إلى الحديث عن نظرة مذهبية نشأت في أحضان الثقافة العربية الإسلامية وترعرعت بجدليتها حتى ارتبطت بمفهومها عن تطور الكون ووجدت أنها صنو الوجود كل الوجود، ونعني بها نظرة الفكر الإسماعيلي إلى التاريخ، وهذه النظرة جديرة في رأينا بالعناية والدراسة في عصر حفل بالاهتمام التاريخي على كل مستوى، وفي كل مجال ولذا فإن هذا البحث «الفكري» يطرح من المشكلات التاريخية والذهنية بأكثر مما يجد حلولاً.

الإسماعيلية والتاريخ المذهبي

ولكن ما الإسماعيلية، أولاً؟

إن للإسماعيلية، مذهبياً، تعريفات شتى. ففي نظر أحد اتباعها من المعاصرين: «الإسماعيلية قصيدة فلسفية تتطور مع الزمن، وتتكيف معه. أو بلغة أصح، هي انطلاق الفكر الوثاب في هذا العالم اللامتناهي، أو وثوب الروح نحو مثلها الأعلى. فهي والحالة هذه بحر من العلوم، وقبس مضيء من النور، وشعاع مشع ينير ظلام عالم الكون والفساد». ولكن هذه القصيدة هي ديانة وجماعة دينية وتعليم ديني في نظر الإمام (سلطان محمد شاه علي الشهير بأغا خان الثالث) وهو يقول: «إن الديانة الإسماعيلية تأسست في سورية من قرون عديدة، بعد الجزيرة العربية، ومصر، وتثبتت فيها بالقوة نفسها، رغم التبدلات الأساسية التي طرأت في تلك البلاد مع الزمن. ولقد ثوبر بصورة دائمة على التعليم الديني بجد واندفاع، وذلك بفضل حمية أولئك الذين يخلصون للجماعة الدينية»[٢].

(٢) مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر. (دمشق ١٩٥٣) مع الرسالة التي بعث بها الإمام آغا خان الثالث إلى المؤلف بتاريخ ١٩٥٣/٥/٣.

ونحن نرى أن للإسماعيلية تاريخين: تاريخ وقائع جرت، ودول أو دويلات قامت ودالت، ثم تاريخاً يفسر هذه الوقائع إذ يرويها، بل يؤولها تأويلاً، ويضفي عليها من وراء المذهبية ما يجعل حوادث التاريخ حلقات سلسلة منطقية هادفة إلى غرض محدد يمثله تحقيق المثل الأعلى الذي لا يرمي إليه التاريخ الإسماعيلي وحده، بل التاريخ الإسلامي والتاريخ البشري. ويقول آخر، أن التاريخ المذهبي الإسماعيلي يتطلع إلى دمج التاريخ الإسماعيلي في التاريخ العام، بل، بصورة أدق، إلى دمج التاريخ الإنساني بالتاريخ الإسماعيلي، واعتبار الصيرورة الكونية ذاتها، صيرورة الإبداع كما يقول الإسماعيليون، باشتمالها على التاريخ البشري منذ عهد آدم، وما قبله، إلى آخر العصور، ونهاية الأزمان في مختلف الأدوار والأكوار والقرانات، وما يلي ذلك من فوز ونجاة ونعيم في الآخرة، اعتبار ذلك كله واقعاً بالمعنى الإسماعيلي، وللأغراض الإسماعيلية.

إن المقام لا يتسع هنا لذكر تفاصيل شتى عن نشأة الإسماعيلية وتطورها وتكامل نظرتها المذهبية وتعقدها الفلسفي الشديد، ولكن من النافع أن نلمح إلى بعض وقائع من تاريخها الفعلي، إيضاحاً لبعض جوانب من التاريخ الإسماعيلي المذهبي.

إن كلمة الشيعة الأمامية تتفق على القول بإمامة (علي بن أبي طالب)، ثم ابنه (الحسن)، ثم (الحسين)، ثم (علي بن الحسين) و (محمد بن علي)، و(جعفر بن محمد). وكان له. وهو الإمام السادس. أولاد يسمى أكبرهم (إسماعيل) وقد توفي قبل وفاة والده بسنوات خمس، وكان إسماعيل هو السابع في ترتيب الأئمة، فرأت فرقة من الشيعة أنه كان آخر الأئمة، وأنكر آخرون مدته وقالوا أنه غاب وأنه سيعود وأنه لم يمت حقاً، بل إن الله حجبه إلى الوقت الذي يقتضي ظهوره، ويسمى هؤلاء بالسبعية، لوقوفهم في الإمامة عند هذا، ويسمعون أيضاً بالإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق «أو لانتسابهم إلى محمد بن إسماعيل»[٣]، وقيل لإثباتهم الإمامة لإسماعيل، بينما حجبها عنه الاثنا عشرية الذين قالوا بإمامة موسى الكاظم بدلاً من أخيه إسماعيل.

وقد توسع الإسماعيليون، أو السبعية، في العدد سبعة توسعاً أنجب في مجال نظرتهم إلى التاريخ نظرية الأسابيع التي سنتحدث عنها. والثابت في مستوى الواقع أن تلا ذلك فترة من النشوء والنضج العقائديين وقد تعاقب في هذه الفترة أئمة مستورون أمن بهم اتباعهم، وعملوا بإرشادهم، حتى انتهى الأمر بظهور (محمد المهدي)، رأس الدولة الفاطمية، وامتاز هو وخلفاؤه بالجمع العلني بين الخلافة والإمامة، وما أن توفي الخليفة الإمام الفاطمي الثامن وهو (المستنصر بالله) سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م حتى انقسم الإسماعيليون إلى شعبتين أو فرقتين هما: (النزارية) أو (الاغاخانية) كما تسمى الآن، وتضم الذين ظلوا أوفياء للإمام «الوارث الظاهر» الأصلي وهو (نزار بن المستنصر بالله)، وهم أقل من الإسماعيليين عدداً، ويعرفون حالياً باسم الخوجة أيضاً، ولا

(٣) التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، مادة (سبعية).

يزالون في أنحاء من الشام وفي الموت وإيران والأفغان والهند وباكستان وقسم منهم في العراق[٤]. والفرقة الثانية تتبع الإمام (أحمد المستعلي بالله) ٤٩٥ هـ/١١٠١م وهو الإمام الإسماعيلي العشرون، وقد تلا (المنصور الآمر بإحكام الله) المتوفي سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م ثم خلفه الإمام (أبو القاسم الطيب بن المنصور)، وهو إمام مستور، ويقال لهذا العهد (دور الستر) ولا يزال مستمرا إلى الآن. وتعرف الفرقة (المستعلية) باسم طائفة (البهرة) في الهند، أو باسم (الطيبية) في اليمن. وقد انقسم (البهرة) أنفسهم سنة ٩٩٩هـ/١٥٩١م أثر وفاة داعي الدعاة) (داود بن عجب شاه). فانتخب بهرة كجرات (داود بن قطب شاه) خلفاً له، وصارت أكثرية البهرة تدعى (الداودية)[٥] نسبة إليه. أما اليمانيون فقد عارضوا ذلك، وعضدوا رجلاً آخر اسمه (سليمان) يدعي أنه خلف سابقه (داود بن عجب شاه)، وأن هذا قد اختاره بوثيقة معطاة منه ويسمى أتباعه، وهم قلة، (السلمانية)، ولا يزال دعاتهم في اليمن إلى اليوم.

ومن الداودية اشتقت (البهرة العلية) نسبة إلى (علي) حفيد الشيخ آدم الملا الأكبر، أي داعي الدعاة، واشتقت عنهم فرقة صغيرة تسمى (الناكوشتية) سنة ١٧٨٩م واسمهم فارسي الأصل وهم يحرمون اللحوم[٦].

بيد أن النظرة المذهبية إلى تاريخ ما حدث تبين لنا بصورة طريفة وعميقة مدى تأثير التأويل الفكري للوقائع على «تقديم» هذه الوقائع ذاتها من وجهة نظر الإسماعيلية العقائدية، وقد نجد في هذا كله مثلاً آخر كاملاً أو شبه كامل على نفوذ الجدلية الفكرية في نضد الحوادث التاريخية، واضفاء حلة «عقلية» عليها ، لاجتلاء سببيتها بل حتمية تعاقبها، مع تأكيد يعود بصورة خلفية إلى الماضي فيثبت له غائية مذهبية، وتأكيداً تنبؤياً يحدد للمستقبل التاريخي غائية صيرورته.

أسس النظرة الإسماعيلية:

إن للنظرة الإسماعيلية إلى التاريخ أسساً ترجع بالدرجة الأولى في رأينا إلى الفكر الإسلامي ذاته، وقد ألف الإسلام في مبادئه الأولى بين السياسة والدين، ولم يفصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية، ولذا طرحت مشكلة إدارة دفة المجتمع من الناحية السياسية فور وفاة الرسول طرحاً قوامه الاعتبار الدينية، واهتدى المسلمون في جملة ما اهتدوا به على استشفاف إرادة الرسول في من يكون خليفته بأنه كان قد أوصى (أبابكر) بإمامة المصلين، وذهب الشيعة إلى أن الخليفة الشرعي من بعد (محمد بن عبد الله) هو ابن عمه (علي بن أبي طالب) وقد أوصى به نصاً في (غديرخم)، واشترطوا انتقال الإمامة (أو الخلافة) من (علي) إلى أبنائه وأحفاده.

---

(٤) ترى النزارية أن عدد الأئمة من (علي بن أبي طالب) إلى كريم آغاخان (الذي توج إماما في ١١ تموز ١٩٥٧ يبلغ (خمسين).

(٥) يطلق مصطفى غالب لفظ (داهود) و(داهودية) على داود وداودونية (أعلام الإسماعيلية الجدول الثالث الملحق بالكتاب).

(٦) كتاب سمط الحقائق . الداعي الدعاة علي بن حنظلة الوداعي . دمشق ١٩٥٣ مقدمة بقلم عباس العزاوي ص١٨.

كانت «الإمامة» و«الخلافة» صنوين في البدء. ثم ميزت الوظيفة السياسية في رئاسة الدولة عن الوظيفة الدينية في ترؤس المصلين أبان أداء الصلاة، وعرفت الأولى باسم الإمامة الكبرى، والثانية بالإمامة الصغرى، وتكون الوظيفة الثانية من خصائص صاحب الوظيفة الأولى بالطبع، عند وجوده أو عند وجوده ظاهرا في الملأ.

تطور معنى (الإمام) في الثقافة الإسلامية والعربية فأصبح يدل على الرئاسة والتقدم، أول ما يدل. ورأى (المعرى) أن لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء، وبقي معنى الإمام يدل على الشخص الهادي إلى أفضل السبل في الحياة... ولكن مفهوم الإمام قد تطور في نظر الشيعة بعامة، والإسماعيلية والفرق الغالية بخاصة تطوراً مذهلاً. فالإمام في نظر المعتدلين من مفكري الشيعة هو شخص فاصل يوحى إليه.

جاء في كتاب «الوافي» (للكليني) ما يلي: كتب (الحسن بن العباس المعروفي) إلى (الرضا) يقول: جعلت فداك! أخبرني ما الفرق بين الرسول والإمام والنبي؟ فكتب أو قال: الفرق بين الرسول والنبي والإمام أن الرسول هو الذي ينزل عليه جبريل، فيراه ويسمع كلامه، وينزل عليه الوحي، وربما رآه في منامه نحو رؤيا إبراهيم، والنبي ربما سمع الكلام، وربما رأى الشخص ولم يسمع. والإمام هو الذي يسمع الكلام، ولا يرى الشخص[٧].

فالإمام، بهذا الاعتبار، يلقى الوحي، ولكنهما يزال في منزلة تلي منزلة النبي والرسول. وقد بدل التنهيج المذهبي الإسماعيلي هذه النظرة، ودمجها في مفاهيم الوصاية والولاية وأدوار الستر والكشف، وأفاد من نظرية المثل والمثول، وتأويل الوقائع الكونية تبع العقائدية الإسماعيلية، فغدت الإمامة عنصراً من جملة عناصر أربعة تجتمع مثلا عند (عبد المطلب) مثلما اجتمعت من قبل عند جده (إبراهيم) عليه السلام، يقول الداعي الفاطمي (طاهر بن إبراهيم الحارثي اليماني) المتوفى سنة ٥٨٤هـ، في كتاب (الأنوار اللطيفة، لذوي الصور النيرة الشريفة)[٨]: أن آدم يقوم مقام التنزيل، ونوح يقوم مقابل التأويل، وإبراهيم يقوم مقابلاً للحقائق، ولذلك قال فيه الكتاب الكريم ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ إشارة إلى هذه الثلاث الرتب التي هو هي، وهو مقام كريم ذو هيكل نوراني عظيم، وهو ولد الإمام السابق عليه، الموجد المشير إليه، فاجتمعت عنده النبوة والرسالة والوصاية والإمامة... ولما اجتمع الأربع الرتب في إبراهيم وكان على الحالة المذكورة في الفضل والشرف أقام دعوته إلى أن استخرج منها ولده إسماعيل... وصيا وسلم إليه رتبة الوصاية والإمامة بأمر الله تعالى، وإذ هو مقام إلهي وهيكل نوراني وسلم إلى ولده إسحق رتبة النبوة والرسالة وجعله خادما بين أيدي أخيه إسماعيل وحجاباً عليه وداعياً له...

وإلى جانب هذه التمييزات الدقيقة في صلات الإمامة بالوصاية وبالرسالة وبالنبوة، نلقى

---

(٧) المصدر المذكور ص ٨٢.

(٨) الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والاثنى عشرية. إعداد وتقديم محمد حسن الأعظمي. القاهرة ١٩٧٠ ص١٢١.

التنهيج الإسماعيلي «لا يكتفي بجعل الإمام مثلاً أعلى، وإعطاء الإمامة مرتبة القداسة السامية» بل قال: إن الإمامة ذاتها على درجات أو مقامات هي:

١- الإمام المقيم: وهو الإمام الذي يقيم ناطق الدور ويربيه ويمده بالإمدادات الروحية،وهي أرفع مراتب الإمامة.

٢ - الإمام الأساس: وهو الإمام الذي يرافق الناطق في كافة مراحل حياته ومنه يتسلسل الأئمة المستقرون في الأدوار الزمنية.

٣ - الإمام المتم: وهو الإمام الذي يتم الدور. والدور يقوم به سبعة من الأئمة، وهو سابعهم وتم الدور، وقوته تعادل قوة الستة الذين تقدموه.

٤ - الإمام المستقر: وهو الإمام الذي له الحق بتوريث الإمامة لولده، وصاحب النص على الإمام الذي يأتي بعده.

٥ - الإمام المستودع: وهو الإمام الذي يتسلم الإمامة بظروف استثنائية ولا يحق له توريثها لأحد من ولده.

٦ - الإمام بالقوة: كتاب الله المنزل.

٧ - الإمام بالفعل: وهو الأساس[٩].

إن نمو وتكامل الفكر الإسماعيلي التأويلي يجعل الحاجة ماسة جداً اليوم إلى وضع معجم خاص بالإشارات وبالرموز والكنايات الإسماعيلية وقد تمايزت معاني كثيرة في الحقل الإسماعيلي خاصة، وفي ميدان الفكر الباطني عامة ، وأصبح مجال التأويل مجالاً وسيعاً غنياً من مجالات الثقافة العربية، بل الإسلامية، وساعد على غموض أسلوب التأويل المذهبي اتسام إنتاجه بسمة المعرفة السرية المكتومة التي لا يعرفها إلا الأئمة وحياً، وإلا خاصة أتباعهم الراسخون في العلم، إطلاعاً، وتتدرج المعرفة بين الكتمان والستر وبين الجلاء والظهور من مراتب الأئمة وهم ينبوع التأويل، إلى مراتب المؤمنين العاديين والمستجيبين وهم ينوسون بين معرفة الظاهرة، ظاهر أهل الظاهر، وظاهر أهل الباطن، قبل أن يمضوا قدماً في معراج المعرفة الحقيقية على سلم التأويل.

بين التفسير والتأويل:

من المبين أن الفارق بين التفسير، وهو درب الفهم والوضوح، والتأويل، وهو سبيل كشف الاستغلاق والغموض، هو فارق دلالة الإشارة ودلالة الرمز، فللإشارة في اللغة دلالة الإشارة ودلالة الرمز. فللإشارة في اللغة دلالة اصطلاحية عامة ذائعة مقررة. أو أن لها، بوجه الإجمال، دلالة مقبولة ترتبط برباط وثيق، أوكالوثيق، بما تدل عليه، فلا تخرج به عن مدى المعنى المتعارف عليه، أما الرمز، والفهم الرمزي، أو التأويل، فإنه يمنح الظاهرة أو اللفظ دلالة لا ترتبط بما تدل

(٩) الداعي يعقوب السجستاني: كتاب الينابيع . المقدمة بقلم مصطفى غالب ص٢٤.

عليه برباط مباشر عام مقرر لدى الناطقين باللغة. وإنما تعتمد الدلالة الرمزية في معظم الأحوال على المماثلة أو المحاكمة التمثيلية، وتجعل للظاهر دلالة باطنية، وتكون هذه الدلالة نسبية أو مغلقة على غير أصحابها، أي خاصم بهم، يحددها لذاته ذهن دون سائر الأذهان، ويفهمها تبع ذلك قوم مخصوصون دون سائر الأقوام.

لقد حسب باحثون معاصرون، ومنهم الأستاذ (أبو الحسن علي الحسني الندوي) ، إن مباحث علم الكلام نشأت إثر انتقال العلوم اليونانية والسريانية إلى العربية، وانصراف الناس عن ميدان القتال، وقد كان المسلمون، في غنى عن ذلك بما جاء به الرسول من علم محكم وبينة واضحة، ولكننا نعتقد أن علم الكلام وليد الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي بالدرجة الأولى، ونرى أن المباحث الكلامية أفادت (أو إذا شئنا ، تأثرت) من التمازج الثقافي ومن انتقال العلوم اليونانية والسريانية وغيرها إلى الثقافة العربية. ولسنا نعرف تاريخ أمة من الأمم، ولا ديانة من الديانات بمنجى عن تطور يواكب ازدهار الوعي العقلي ويستجيب لمشاغل البيئة الفكرية والتاريخ الاجتماعي والسياسي. وعندنا أن تعقل مجالي النظر والعمل هو الذي حمل المسلمين الأوائل عن التساؤل عن أسس عقيدتهم ليجلوا واقع تقديرهم أو تقويمهم للعلل والدوافع والأهداف الجاثمة وراء تصورهم وسلوكهم. وقد كان السبيل في تحديد المشكلات وحلها، كما هو معلوم، سبيل فهم القرآن الكريم والأحاديث النبوية ثم اللجوء إلى التفكير واستخدام الرأي والاجتهاد بالاستدلال الفقهي لبلوغ مرتبة الإجماع أو ما يشبه الإجماع.

إن هذا المسعى الذهني يعتمد ، أكثر ما يعتمد، مبدأ التفسير والقياس المنطقي، وهما يبدوان قاصرين في نظر الشيعة التي انطلقت من القرآن والحديث، ولكنها اعتمدت على غير الرأي والاجتهاد والإجماع، وذهبت إلى أن الحقيقة في العلم إنما تطلب عن طريق الإمام الذي يوصى إليه. فالإمام هو المعلم المعصوم، ومنه يستمد المؤمنون، أي الاتباع، معرفتهم وعلمهم وهديهم، وهو وحده الذي يملك حق التأويل، أو الفهم الرمزي، لما يستغلق أمره على الناس أجمعين.

وعلى هذا فإن الفكر التأويلي أو الباطني وجه من أوجه الثقافة العربية والإسلامية، وهو في رأينا يمثل جانباً ممكنا من جوانب تطور الفكر الإسلامي، ونحن نحسب أن النشاط التأويلي، وإن كنا نشاهده في ثقافات كثيرة شتى، قد بلغ في الإسلام مبلغاً لا يقاربه تأويل آخر في ثقافة أو ديانة من الثقافات التاريخية أو الديانات. ويكفي أن نجلو ذلك بنظرة خاطفة إلى معنى الولادة الروحية. (وقد عرفتها المسيحية). في التأويل الإسماعيلي.

التأويل والولادة الروحية:

يرى التأويل الباطني في الإسماعيلية أن المعرفة التي يحظى بها «المؤمن» السعيد، أي الشيعي الإسماعيلي، تنقله من حال إلى حال، ومن حياة إلى حياة، إذ يولد بالروح ولادة دينية، كما يقول مثلاً الداعي (علي بن محمد الوليد) في كتابه المسمى «رسالة جلاء العقول وزبدة

المحصول» يقول: «ولما كان الشخص الإنساني الذي هو آخر المواليد الجسمانية لا يخرجه إلى حد كماله إلا بعد تنقله في سبعة أحوال، وهي التي ذكرها الله تعالى بقوله: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين».

كان انتقال المولود الديني لذلك في أحواله إلى أن ينتهي إلى كماله في بطن أمه المتولية لحضانته، وتلك دعوة الوصي في عصره، ودعوة حجة كل إمام في وقته، المعني بقول النبي (ص): «أنا وأنت يا علي أبوا المؤمنين»، وهذه المراحل السبع للولادة الدينية تؤلف سلالة دينية تماثل السلالة الجسمية التي حصلت في الرحم، وبها تكون الدعوة الإسماعيلية هي الأم، والوليد بالروح هو المؤمن الصادق الذي يرقى من الظاهر إلى الباطن، ومن الضلال إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، بل يرقى من ظاهر أهل الظاهر، وهم الجهال، أي عامة المسلمين، إلى ظاهر أهل الباطن، ثم إلى باطن أهل الباطن، فتتم ولادته بالروح، ولادته الحقيقية بالدين.

عاش الداعي (علي بن محمد الوليد) في القرن الهجري السابع، وبنى نظرياته على أصول ثقافية متواترة نامية نجد أسسها في القرن الرابع الهجري لدى (القاضي النعمان محمد بن حيون)، المفكر الإسماعيلي الشهير، وقد نص في كتابه «تأويل دعائم الإسلام». الذي دبجه ليبسط فيه الرموز والإشارات بالباطن والتأويل وكيف ينبغي تعلمه والترقي في درجاته، فيكون كتاب «عائم الإسلام»[١٠] أصل الظاهر، أي ظاهر أهل الباطن، ويكون كتاب «تأويل دعائم الإسلام» أصل الباطن، أي باطن أهل الباطن.

يرى (القاضي النعمان) أنه ينبغي أن يكون التدرج في الانتقال من ظاهر أهل الظاهر إلى ظاهر أهل الباطن، ثم إلى باطن أهل الباطن، على مراتب: ففي المرتبة أولى يصرح فيها «بعض التصريح» ليكون ذلك التصريح مقدمة من العلم يثبت في القلوب على حسب الواجب في ذلك ويستمر هذا التصريح الجزئي «مدة حولين» يصار بعدهما إلى ترقية السابقين فيه إلى مرتبة أخرى، أو أحد آخر، هي مرتبة التربية، تربية المؤمنين، بتأويل ما في كتاب «دعائم الإسلام» من أوله إلى آخره ويكون مبدأ التدرج في التعليم الباطني الإسماعيلي مطابقا مبدأ التدرج في النمو الجسدي، أو في النمو الظاهر، لأن المولود يكون مولوداً يصلح ظاهر بدنه، ثم رضيعا يغذي باللبن، ثم صبيا إذا فطم، ثم يبلغ الحلم بعد ذلك[١١].

يقول (القاضي النعمان): «سمعتم أيها المؤمنون كيف أنتم تنقلون حالا بعد حال في حدود الدين كانتقالكم في نشأة الخلق الظاهر، وأن خلق الدين مثله في الباطن». وعلى الحجة أن يتبصر بادئ ذي بدء في كفاءة المستجيب ليرى هل هو ذكر أم أنثى، أي ليعرف هل هو ممن يصلح

(١٠) نشر في القاهرة بتحقيق أصف بن علي أصغر فيضي. جزان ١٩٥١. ١٩٦١.

(١١) منتخبات إسماعيلية تنشر لأول مرة. تحقيق د. عادل العواد. دمشق ١٩٥٨ ص ٧٠٦. وقد نشر كتاب تأويل دعائم الإسلام في ثلاثة أجزاء بتحقيق محمد حسن الأعظمي. القاهرة ١٩٦٩. ١٩٧٢.

أن يكون مفيدا فذلك مثل الذكر، أو مستفيداً فذلك مثل الأنثى... ويبدأ باطلاع المستجيب على ظاهر أهل الباطن، ثم يرقى به إلى باطن أهل الباطن، حتى يجاوز المولود الديني حد الرضاع الباطن، ويبرع ويبلغ منزلة «من بلغ النكاح وأونس رشده واستحق قبض ماله وتصرف فيه كما يتصرف الحاتز الأمر في ماله»[١٢].

وعلى هذا النحو التأويلي ينهج الفكر الإسماعيلي الولادة بالحقيقة، الولادة الدينية بالروح، ويقصدون بذلك رسم خط النمو العقائدي لتاريخ الفرد، وبهذه النظرة ذاتها يود الفكر الإسماعيلي أيضا رسم خط منهجي أوسع يندمج في سلكه الفرد السعيد العارف بالحقيقة، وهذا الخط الوسيع يحدد صورة التاريخ بأسره في نظر الإسماعيلية.

التاريخ في نظر الإسماعيلية:

ينقل الأستاذ (مصطفى غالب) عن نسخة خطية يحتفظ بها في مكتبته الخاصة لـ «بيت الدعوة الإسماعيلية» ما يلي: عن (ابن عباس) قال: قال الله تعالى كنت كنزا مخفيا لا أعرف، ولما أردت أن أعرف خلقت خلقاً فعرفتهم بي، فبي عرفوني. وقال (ابن عباس) أيضا: أول ما خلق الله تعالى الملائكة وجبلهم على طاعته... ثم خلق السماوات والأرض في ستة أيام لتشهد الملائكة خلقها ويعترفون بكمال القدرة ونفوذ المشيئة، ثم أمر الله جبرائيل أن يأتي بقبضة من نور (محمد) (ص) فقبض جبرائيل قبضة بيضاء وغمسها في أنهار الجنة ثم طاف بها في الملكوت الأعلى قبل أن يخلق آدم، وقيل أن الله تعالى خلق نور (محمد) قبل أن يخلق العرش والكرسي واللوح والقلم والسموات والأرض بمائة وأربعة وعشرين ألف سنة وخلق معه اثني عشر حجابا هي حجاب القدرة. والعظمة. والمنعة. والمنع. والرحمة. والمنزلة. والعناية. والوحدانية. والهداية. والولاية. والنبوة. والمعرفة. والصفاية. .. وقد أجلس الله نور (محمد) فترة من الدهر في كل حجاب ... ثم قسم هذا النور إلى عشرة أقسام وخلق من أقسامها العرش. والكرسي. واللوح. والقلم. والشمس. والقمر. والكواكب. والملائكة. ونور المؤمنين. وجعل القسم العاشر في ظهر آدم، ثم نفخ فيه من روحه فسجدت له الملائكة وأخذت عليه العهد والميثاق أن يودع هذا النور في الأصلاب والأرحام الزكية، وقد انتقل هذا النور، وهونور الإمامة، إلى هنيد، ثم إلى شيت ثم إلى أنوس ثم إلى قصي، ثم إلى عبد مناف، ثم إلى هاشم، ثم إلى عبد المطلب، ثم إلى أبي طالب، ثم إلى علي)[١٣].

يتضح من ذلك أن نور (محمد هو نور الإمامة ، وأن الله خلق هذا النور في بدء الخليقة، وأن نوره انقسم في كائنات الطبيعة وأفلاكها وكواكبها انقسامه في كائنات «ما بعد الطبيعة» من العرش والكرسي إلى اللوح والقلم.. وأن الإسماعيلية يعتبرون من حيث الظاهر أن الأئمة من

(١٢) منتخبات إسماعيلية. ص٧.

(١٣) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص٢١. ٢٣.

البشر، وأنهم خلقوا من الطين، ويتعرضون للأمراض والآفات والموت، مثل غيرهم من بني آدم، ولكن في التأويلات الباطنية يسبغون على الإمام (وجه الله) و(يد الله) و(جنب الله) وأنه هو الذي يحاسب الناس يوم القيامة، وهو الصراط المستقيم، والذكر الحكيم، إلى غير ذلك من الصفات. وفي هذه الأقوال أدلة على كل صفة من هذه الصفات:

فمثلا: أن الإنسان لا يعرف إلا بوجهه، ولما كان الإمام هو الذي يدل العالم على معرفة الله، فبه إذن يعرف الله، فهو وجه الله، الذي يعرف به الله، وأن اليد هي التي يبطش بها الإنسان ويدافع بها عن نفسه، والإمام هو الذي يدافع عن دين الله، ويبطش بأعداء الله، فهو على هذه المثابة يد الله...[١٤]

لندع جانبا هذا التأويل الميتافيزيائي الإسماعيلي لأشخاص التاريخ على أساس انتقال نور (محمد)، أو نور الإمامة، عبرهم إلى أن وصل إلى «الإمام» (علي بن أبي طالب). ولنلق نظرة سريعة على مفهوم أدوار التاريخ وأكواره وفتراته وقراناته كما يراها الإسماعيليون.

يؤكد الأستاذ (مصطفى غالب)، «إن الإسماعيليين ينظرون لدعوتهم نظرة تعطي الدليل على أنها قديمة وقد رافقت الكون منذ نشأته الأولى»[١٥]. ونحن نرغب عن البحث في مواكبة الدعوة الإسماعيلية الكون منذ نشأته الأولى، إلى البحث بإيجاز عن نظرة الإسماعيلية الأجمالية إلى تاريخ الكون، ولاسيما بالإضافة إلى الكون البشري.

نظرة الاسماعيلية لتاريخ الكون:

إن هذه النظرة ترى أن للكون عمرا ينتهي بانقضاء الكون الأعظم «الذي هو ضرب ثلاثمائية ألف سنة وستين ألفا في مثلها، ومائة ألف ألف ألف وتسعة وعشرون ألف ألف ألف وستمائة ألف سنة»[١٦]. ولقد أبدع الله تعالى عالم الإبداع المكنى عنه بعالم الأمر، وعالم العقل، وعالم القدس، وعالم الصفا، وعالم اللطافة، والعالم الروحاني، جميعا دفعة واحدة من غير شيء تقدمهم ولا على شيء صحبهم ولا على شيء أقلهم[١٧]. وأتبع عالم الإبداع عالم الإجرام، وكان ابتداء ترتيب عالم الأفلاك كابتداء خلق الإنسان[١٨]، ورتبت العناية الإلهية كل كوكب من الكواكب، وفلك من الأفلاك وركن من الأركان في موضعه اللائق به وجعلت الكواكب السبعة مدبرة لعالم الأمهات والمواليد، متولية تدبير عالم الكون والفساد وصار لكل كوكب منها إحدى وخمسون ألف سنة ونيف وكان ابتداء التدبير فيه لزحل لأنه أعلى الكواكب، ولا يزال الحال كذلك إلى وفاء سبعة آلاف سنة

(١٤) مصطفى غالب: إعلام الإسماعيلية. بيروت ١٩٦٤ ص ٢٩ . ٣٠.
(١٥) مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية. المقدمة ص٢٨.
(١٦) الداعي طاهر بن إبراهيم الحارثي: الأنوار اللطيفة ... ص١٤٤.
(١٧) المصدر السابق ص٨٣.
(١٨) المصدر السابق ص٩٢.

ونيف، وبتمام إحدى وخمسين ألف سنة ونيف يتم دور زحل ثم يبتدئ دور المشتري وسائر الكواكب على ما سبق به القول، إلى أن يقع تمام تدبيرها على وفاء ثلاثمائة ألف سنة وستين ألفا، ولا يزال الأمر كذل على هذه الحالة وفاء الكور الأعظم، وهو ضرب الثلاثمائة ألف والستين الآلف في مثلها، وجملة ذلك مائة ألف ألف وتسعة وعشرون ألف ألف وستمائة ألف ألف، ثم استرخت رباطات الفلك وابتدئ بالخلقة كأولها، «كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا أنا كنا فاعلين». ثم يرجع التدبير إلى زحل كالنصبة الأولى، بعد أن يفسد جميع ما على وجه الأرض مثلاً بمثل أبدا سرمدا، ثم يكون أول النشوء جنة إبداعية من الأرض، ككونها في الدور الأول...[١٩].

ولما ظهر الإنسان ابتدأ زحل بتدبير الألف السابع بمشاركة القمر له فيه، ومرافدته له، وهو ألف السعادة، ولكونه مقابلا للخلق الآخر. فظهرت هذه الأشخاص البشرية. بالقامة الألفية، في كل جزيرة من الجزائر الاثنتي عشرة، على اختلاف أجناسها من عرب وفرس وهند وسند وحبش وبربر وخزر وزيالع وصقالبة وترك وزنج وروم وغير ذلك، وظهر في جزيرة «سرنديب» التي هي خط الاستواء شخوص كثيرة، من جملتها، ثمانية وعشرون شخصا، هم صفوة جميع الخلقة وألطفها وأشرفها وأفضلها وهي غاية الجنس البشري وصفوته وزبدته، وعلى مثاله جبلت حروف المعجم الثمانية والعشرون، وهم ممثلوها، ولحظها (العقل) العاشر المتولي لها، الموكول إليه أمر عالم الطبيعة، القائم فيه برتبة الوحدة، المقابل للعقل الأول في عالم الإبداع، إذ هو مطروح شعاعه وهذا (العقل) العاشر هو المتجلي بكل مقام ظهر في عالم الطبيعة . من ناطق ووحي وإمام...[٢٠]

وعلى هذا فإن الملائكة في الفكر الإسماعيلي هم العقول الروحانية، أما أولو العلم الذين ذكرهم الله تعالى حيث قال في كتابه الكريم: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾ فإنهم هؤلاء الثمانية والعشرون الشخص الذين كان من جملتهم شخص واحد هو أمضاها وألطفها وأفضلها وأشرفها وهو زبدة العالمين جميعاص، اتحد به العقل العاشر ونظر إليه وأيده فبلغ الكمال الثاني من بعد كمال مبدعه الأول ودعا السبعة والعشرين إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه وتجريده فأجابوه مسرعين واختار منهم ستة عشر شخصا أقام أفضلهم باب، والثاني حجة، وداعيين أحدهما داعي بلاغ والثاني داعي مطلق، واثنا عشر جعلهم حجج الليل، وتركهم بحضرته لا يفارقونه وفرق آحد عشر شخصا وهم الباقون في جزائر الأرض الإحدى عشرة، والثاني عشر هو الكائن معه في جزيرته التي هو فيها، ورتبهم محفوظة في جميع الجزائر إلى الآن، وإلى آخر الزمان[٢١].

اجتمعت أنوار النطقاء والأسس والأئمة كلها لدى قائم القيامة رضي الله عنه، وهو ذاك الشخص الفاضل المنصوص عليه، ووفاء مدتهم أن يكملوا مائة ألف وأربعة وعشرين ألف صورة،

(١٩) المصدر السابق ص١٠١.
(٢٠) المصدر السابق ص١٠١.
(٢١) المصدر السابق ص١٠٢.

وأما مدتهم فسبعة آلاف، ولا يزال على وفاء كل سبعة آلاف سنة قائم يقوم كمثل هذا القائم المتقدم عليه القول إلى وفاء خمسين ألف سنة، وقيام القائم السابع فيكون له من القوة والشرف والفضل ما لم يكن لأحد تقدمه من الستة المتقدم ذكرها لأنه يقوم مقام الخلق الآخر الذي هو الروح للجسم، وهو منتهى دور الكشف، وعند نقلته وانقضاء دوره ابتداء دور الستر، ويقوم ولده بعده فيقع في الدعوة ضعف، ولا يزال الضعف يتمادى إلى أن تنطمس الدعوة وتبقى في حالة الستر، ويكون الأئمة في غاية التقية وتكون أيدي الأضداد غالبة عالية إلى وفاء ثلاثة آلاف سنة وقيام أول نطقاء دور الستر، وهو آدم عليه السلام، فيكون الأمر بخلاف ما كان عليه في الثلاثة الآلاف المتقدمة، ويستقبل سبعة آلاف سنة... وعلى هذا المنحى والنسق: دور كشف. ودور ستر. ثم دور كشف، وبه رمز سيدنا (حميد الدين) ب «نون» حيث قال في رسالته المعروفة «بالحاوية»: ومن الرموز على ذلك نون فأور زندك في حالة يتقدح لك بالعلوم، وتأمل العلامة الدالة على السنة التي هي «الواو» بين النون الأول والآخر وكيف يحصل بعد الستة كالأول، هذا رمز من الرموز فأعرفه «إنه رمز بالواو التي في حساب الجمل ستة إلى الستة النطقاء في دور الستر. الذين أولهم آدم عليه السلام، وآخرهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ورمز بالنون الأولى على دور الكشف الذي هو في حساب الجمل خمسون ألفاً إذ النون في حساب الجمل خمسون، وبالنون الأخرى على دور الكشف الأولى بعد دور الستر»[٢٢].

وبمثل هذا الإيضاح غير الواضح «جدا» لغير أهله يود الفكر الإسماعيلي شرح تاريخ الكون منذ نشأته وتطوره بما يواكب الدعوة الإسماعيلية، أو لنقل، بما يواكب تاريخ نشأة الإنسان منذ آدم حتى ابنجاس دعون الإمام، ولعل مما يدنينا إلى الوضوح الواضح أن نقف أمام نظرية الأسابيع في التاريخ الإسماعيلي.

نظرية الأسابيع

ترى هذه النظرية أن للتاريخ البشري أدوارا واكوارا وفترات. فالفترة تبدأ بناطق، وللناطق أساس أو وحي، ولها أصحاب يسمون أصحاب الفترة، والفترة هي بين الناطق والناطق، وربما امتدت إلى أكثر من ألف وخمسمائة عام، وتشتمل كل فترة على سبعة أئمة والإمامة لا تنقطع لأنها حجة على الخلق، وقد ميز الفكر الإسماعيلي ست فترات، يقابلها ستة أدوار: الدور الأول دور آدم، ويعتبر دور التكوين، والثاني دور نوح، ثم دور إبراهيم، ودور موسى، ودور عيسى، وبانتهاء الدور الخامس هذا تنتهي مدة الفترات، ويطلق على الدور من آدم إلى إبراهيم اسم الدور الصغيرة وعلى أدوار موسى وعيسى الدور الكبير الذي ختمه محمد. وقد اعتبر الإسماعيلية أن موسى واسطة بين السبعة، ثلاثة بازاء ثلاثة، أولهم آدم وآخرهم القائم، لقول (جعفر الصادق): «تمام

(٢٢) المصدر السابق ص١١٠.

أمرنا في ثلاثة منا وأربعة من غيرنا». والسابع يظهر بالقوة وبالفعل معا، أما الدور السادس فهو دور القرآن العظيم، وهو خاتم الدائرات العظمى، وفي عهد الدور السادس زالت الفترة، والناطق فيه هو (محمد صلى الله عليه وآله وسلم) . أما الأساس أو الوحي فإنه علي بن أبي طالب.

أن الأدوار أجزاء من الأكوار. وفي الأدوار والأكوار نوعان من الأئمة هما لائمة الاستقرار دائمة الاستيداع. وإذا اقتصرنا على الدور السادس وجدنا أئمة الاستقرار فيه هم: علي بن أبي طالب. (ويليه إمام مستودع هو الحسن بن علي). والحسين بن علي. وعلي زين العابدين. ومحمد الباقر. (ويليه إمام مستودع هو موسى الكاظم). وجعفر الصادق. وإسماعيل بن جعفر. ومحمد بن إسماعيل [٢٣].

وجد المسلمون. ولنقل أهل الظاهر بحسب الاصطلاح الإسماعيلي. أن الإسلام بني على أركان خمسة. وذهبت الإسماعيلية أو السبعية إلى أن عدد هذه الأركان أو الدعائم هو سبع. ويروى عن الإمام الباقر لعلوم الدين (محمد بن علي بن الحسين) قوله: إن الإسلام بني على سبع دعائم: الولاية وهي أفضلها، وبها وبالولي ينتهي إلى معرفتها. ثم الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد. فالولاية مثلها مثل آدم عليه السلام، لأنه أول من افترض الله تعالى ولايته وأمر الملاكة بالسجود له، والسجود الطاعة، وهي الولاية، ولم يكلفهم غير ذلك فسجدوا إلا إبليس . أما الطهارة فمثلها مثل نوح وهو أول مبعوث ومرسل لتطهير العباد من المعاصي والذنوب التي اقترفوها. والصلاة مثلها مثل إبراهيم الذي بنى البيت الحرام. والزكاة مثلها مثل موسى، وهو أول من دعا إليها وأرسل بها. والصوم مثله مثل عيسى الذي خاطب بالصوم أول ما خاطب به أمه أن تقوله لمن رأته من البشر. والحجج مثله مثل (محمد) وهو أول من أقام مناسك الحج وسن سنته وكانت العرب وغيرها من الأمم تحج البيت في الجاهلية ولا تقيم شيئا من مناسكه. ولم يبق من دعائم الإسلام بعد الحج إلا الجهاد. والجهاد مثله مثل سابع الأئمة الذي يكون سابع أسبوعهم الأخير الذي هو صاحب القيامة، وهو يعد سابعا للنطقاء، وهو آخر إمام قد يجمع الله تعالى الناس كلهم على أمره فلا يدع أحدا خالف دين الإسلام، وحدود الإيمان، إلا وقتله.

يقول صاحب «رسالة الأسابيع» أن الله تعالى جعل افتتاحية كل سورة من سور القرآن على سبعة واثنى عشر حرفا... وقد بني الأذان على سبعة واثني عشر لأنك إذا عددت كلمات الأذان فرادى كانت سبعة، وإذا عددتها مثنى كانت اثني عشر، وإن الجبال سبعة، وصورة الحمد سبع آيات، والطواف حول البيت سبع، والسعي بين الصفا والمروة سبعة، وأيام الأسبوع سبعة، والإنسان في نفسه سبع طبقات.... وكذا الأوصياء سبعة، والخلفاء سبعة، والائتماء سبعة[٢٤]....

إن النبي أو الرسول يعتبر في نظر الإسماعيلية ناطقا لأنه يبلغ الكلام المنزل. «ومعنى وقوع اسم الناطقية عليه إضافة إلى قوته وغلبته ونصرته إلى النطق لا إلى شيء من أسباب

(٢٣) مصطفى غالب: أعلام الإسماعيلية. الجدول رقم (١).

(٢٤) الداعي قيس بن منصور: انظر خمس رسائل اسماعيلية تحقيق عارف تامر ١٥٨.

الجسد وهيأته مثل الشجاعة والجود والعشرة وإن قدرته على تسخيره الأمة وغلبته الحق إنما هو من أجل نطقه وصفوة نفسه إذ ليس من آثار النفس عندنا أطهر من النطق، فقيل له من أجل ذلك ناطق يعني قاهر أمته بالنطق لا بالغلبة الجسدانية ...».

والوصي يقال له الأساس ومعناه أساس المؤمنين لبناء أخرتهم بما يقفون على بيان الوحي. فالإمام أو الوصي هو الذي يؤول الكلام المنزل، وهو أساس الأئمة واللواحق وأساس دور الكشف ويقال للرسول والوحي بكلمة «الأساسان».

ويقال للإمام (المتم) لأن بالأئمة تتم أدوار النطقاء، على أن لكل إمام متم خطة ونصيبه من دور ناطقه ليبلغ الأمر من الأول إلى الثاني ومن الثاني إلى الثالث... وإلى سابعه الذي يرتقي من رتبة الأمامية إلى القائمية ليكون سابعا[٢٥]. فالمتم إذن هو الإمام الذي يتم الدور، ويكون هو السابع لكل دور.

وقد جمع الداعي (حسن بن نوح) في كتابه المسمى: «كتاب الأزهار، ومجمع النوار، الملقوطة من بساتين الأسرار، مجامع الفواكه الروحانية والثمار». جمع أسماء النطقاء وأسماء أوصيائهم المنصوبين وأسماء الأئمة المتممين لأدوارهم وجعلها في ستة أدوار يشتمل كل دور منها على ناطق ووحي ومتم، وجعل عدد أئمة كل دور ستة، ووصف تسلسل هذه الأدوار على النحو التالي: دور آدم صفي الله . ثم دور نوح نجي الله، ثم دور إبراهيم خليل الله . ثم دور موسى كليم الله . ثم دور عيسى المسيح روح الله، وسادسها دور محمد رسول الله وحبيب الله وهو سيدهم ومجمع فضائلهم وتاجهم وسراجهم وخاتمهم. و (محمد بن عبد الله) ناطق هذا الدور.، وأما الأساس أو الوحي فإنه (علي بن أبي طالب)[٢٦].

قتل (علي بن أبي طالب) ، وهو الأساس أو الوحي في الدور المحمدي، وبدأ بعد مقتله أول أسابيع الأئمة في نظر (حسن بن نوح). وقد طبق هذا الداعي نظرية الأسابيع الإسماعيلية ونضد في ثلاثة جداول «أسماء الأئمة في الدور المحمدي وألقابهم وكناهم وأيام إمامتهم وسبب موتهم وتواريخ انتقالهم من الدنيا ومواضع قبورهم». وقد اشتمل الجدول الأول على الأسبوع الأول، أسبوع الأئمة، وضم الأسماء الشريفة الآتية: الحسن بن علي. ثم الحسين بن علي. ثم علي بن الحسين . ثم محمد بن علي . ثم جعفر بن محمد . ثم إسماعيل بن جعفر الذي أظهر الغيبة للتقية . ثم محمد بن إسماعيل.

ويشتمل الجدول الثاني على الأسبوع الثاني، وهو أسبوع الخلفاء، وفيه الأسماء الشريفة الآتية: عبد الله بن محمد . ثم أحمد بن عبد الله . ثم الحسين بن أحمد . ثم عبد الله بن الحسين ثم محمد بن عبد الله . ثم إسماعيل بن محمد . ثم معد بن إسماعيل الملقب بالمعز لدين الله والمدفون بالقاهرة المعزية.

---

(٢٥) الداعي أبو يعقوب السجستاني (السجزي) : رسالة تحفة المستجيبين . انظر خمس رسائل إسماعيلية ص١٥٣.
(٢٦) منتخبات إسماعيلية . ص٢٠١.

ويشتمل الجدول الثالث على الأسبوع الثالث وهو أسبوع الأشهاد، وفيه الأسماء الشريفة الآتية: نزار الملقب بالعزيز بالله . ثم الحسين الملقب بالحاكم بأمر الله . ثم علي الملقب بالظاهر لاعزاز دين الله . ثم معد الملقب بالمستنصر بالله ثم أحمد الملقب بالمستعلي بالله . ثم المنصور الملقب بالآمر بأحكام الله . ثم الطيب وكنيته أبو القاسم، ولقبه سابع الأشهاد وشفيع يوم المعاد، وعنده يقف تاريخ الإسماعيلية الطيبية أو البهرة، أي الشعبة المستعلية كما ذكرنا .

ويزعم هذا الداعي المؤرخ أن لفظ التاريخ لفظ محدث في لغة العرب، وهو معرف عن (ماه) و(روز)، ومعناه في الفارسية حساب الشهور والأيام، ويقول: «لقد عربوا الكلمة فقالوا مورز ثم جعلوا اسمه التاريخ واستعملوه»[٢٧]. ويرى أن المؤرخين طلبوا وقتا يجعلونه أول تاريخ دولة الإسلام واتفقوا على أن يكون مبدأ هذا التاريخ سنة الهجرة، وقد رسم (حسن بن نوح) جدولا في صورة دائرة يبين المدد ما بين الهجرة وبين التواريخ القديمة المشهورة وعددها أربع وعشرون تاريخا، ورسم جدولا آخر في صورة مربع ذي أقسام يقرب إدراك المدة بين أي تاريخين يريدهما القارئ بين الهجرة وبين أشهر التاريخ السابق لها، وهذه هي: هبوط أدم . الطوفان . مولد إبراهيم الخليل . وفاة موسى . ابتداء ملك بخت نصر . غلبة الإسكندر على دارا . غلبة أغسطس على فلوبطس . مولد المسيح . قلطيانوس . الهجرة.

وإلى جانب الأسابيع الثلاثة للدور المحمدي، يعقد (حسن بن نوح) فصلاً لتبيان تاريخ أوقات وفاة الحدود والدعاة قدس الله أرواحهم، وشهور ذلك والسنين، بدء من (القاضي النعمان بن محمد بن حيون) المتوفي بمصر جمادى الآخر سنة ٣٦٣ حتى سيدنا (شمس الدين علي بن الحسين بن إدريس بن الحسن) الذي انتقل إلى العالم الأعلى في الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ٩٢٣ . وينتقل المؤلف، في مكان آخر، الى ذكر «تواريخ مجموعة في فنون شتى ومعادن مختلفة ودول الملوك والأمراء وما اتفق في اليمن المحروس» من قدوم أصحاب الفيل إلى مكة في المحرم عام الفيل حتى «وفاة الحرة السيدة بنت أحمد في ذي جبلة في شهر شعبان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة». وقد توفي هو نفسه في الحادي عشر من ذي القعدة ٩٣٩هـ /٤ حزيران ١٥٢٣م.

الإسماعيليون: نظرتهم إلى التاريخ

من الجلي أن التاريخ الواقع هو التاريخ . العلم الذي يتوخى الوصول إلى الحوادث كما حدثت بوجه الدقة الممكنة، والموضوعية القصوى المتاحة. وهذه النظرة إلى التاريخ تظل فناً عزيزا يرقى إلى درجة العلم ، وله فوائد شتى، وغاية شريفة، تجاوز معرفة الحقيقة لذاتها، حتى تتم بها المحاكاة والاقتداء، وما زال (ابن خلدون) يتحدث عن «علم التاريخ» ويرى أنه ينطوي على

(٢٧) مخطوطة كتاب الأزهار (ورقة ٥١).

«فن التأريخ» وهو فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرويه في أحوال الدين والدنيا[٢٨].

فابن خلدون يتوخى الدقة والصدق في معرفة الوقائع، أي أحوال الماضين، ويرى أن هذه المعرفة، العلم تفيد من شاء الاقتداء بتلك الأحوال الغابرة، خلقا، وسيرة، وسياسة، في مجال الدين والدنيا. وبذا فإن معرفة الحوادث الملازمة لأوقات حدوثها الماضية قد تفيد في توجيه المرء سلوكه الحاضر بما يتصل بشؤون الدنيا والدين، وإن اجتماع الدقة والصدق يمثل ما يسمى بالموضوعية في التاريخ، وفي سائر ميادين المعرفة لولا أن النقد الحديث، بل التاريخ المعاصر تجاوز هذا المعنى البسيط فقال (هنري بوانكاره): إن الموضوعية ليست سوى تقارب عدد من الشهادات الذاتية، وذهب (بيير هنري سيمون) إلى أن التاريخ كان بالدرجة الأولى معرفة الماضي بحوادثه التاريخية وأوضاعه وعاداته الأخلاقية وأدبه، وأن شيئا لايبدو أعظم شأواً من استرجاع زمن الأموات أمام نظر الاحياء إن كان المرء شاعراً، أو ارجاعه حيال شعورهم التفكيري أن المرء فيلسوفاً. وقد كان (ميشله) يتحدث عن داء التاريخ، الداء الخاص بالمؤرخ فيقول: «كنت أحب الموت، وقد سلخت تسع سنوات على باب مقبرة (لاشيز) حيث كان موطن نزهتي الوحيد، إنني لا أعاشر سوى مجتمع الماضي، ولا أصادق سوى الشعوب الملحدة في القبور..». كان التاريخ في نظر إنسان القرن التاسع عشر صورة مختلفة كبرى، كثيرة العناصر، مسرحية مؤثرة، ترتفع في المكتبات والمتاحف وعلى المقابر والأطلال، سجادة رائعة لايستطيع كل جيل من الأجيال اكتشافها ونشرها وفك رموزها إلا بالنظر إلى الوراء والالتفاف نحو الموت.

ذاكم كان معنى التاريخ - العلم، التاريخ المعرفة بالحقيقة للحقيقة. وقد تبدل معنى كلمة تاريخ منذ عشرين أو ثلاثين سنة وصار من النادر أن نلقي كلمة أكثر تكراراً على أقلام الفلاسفة وعلماء الأخلاق والروائيين أنفسهم. وهي كلمة ترد دائما مثقلة بالحياة وبأريج الحاضر وحتى بالمستقبل. وقد غدا التاريخ ضمير القرن العشرين، وصار هذا اللفظ دالا على الصيرورة الانسانية بأوسع مدى، لم يبق فضول عالم، بل أضحى حركة حياة، بل سؤالاً يطرح على المصير[٢٩].

التاريخ الموجه أو العقائدي:

هذا المعنى الجديد للتاريخ ينقل المعرفة التاريخية من مجال العلم بالمعنى الضيق، الموضوعي، إلى مجال الحياة، وللحياة على الدوام ثقافة هي المعرفة التي تصل معطيات الطبيعة بالأهداف القيمة المنشودة التي يتمثلها الذهن، ويؤمن بها القلب، ويتصدى لتحقيقها جهد الضمير.

---

(٢٨) مقدمة (المقدمة): طبعة المكتبة التجارية ص٩.

(٢٩) بيير. هنري سيمون: الفكر والتاريخ. ترجمة د. عادل العواد دمشق ١٩٦٢ ص٩.

فالفيلسوف المعاصر (ريمون رويه) يعترف بأن «ثقافة المثقفين تقوم على أساس التاريخ» وأن التاريخ «جوهر كل ثقافة، كما هو جوهر كل حكمة اجتماعية» ويؤكد أن من الممكن وجود «علماء شباب»، ولكن «لايوجد مؤرخ حقيقي شاب». فإذا لم يتوافر الوقت والفراغ للدراسة والتمثل البطيء للمعرفة التاريخية التي تتناول الماضي القومي وماضي المؤسسات لايكون المرء مثقفاً.. وان الذاكرات الالكترونية لاتستطيع أن تحل محل المشاركة الداخلية في التاريخ[٣٠]. وعلى هذا يمكننا القول بالانتقال من التاريخ. العلم إلى التاريخ. الثقافة فالتاريخ. المشاركة.

إن ما ندعوه اليوم ثقافة ومشاركة يقابل في المصطلح العربي الإسلامي السابق ما يسمى العلم والمعرفة. فالعلم المكنون في الصدور يمثل المشاركة الداخلية في الثقافة السائدة. إذا كان هذا العلم نظرة «موجهة»، كنظرة الإسماعيلية إلى التاريخ العربي الإسلامي، واعتبارها هذا التاريخ جزءا من تاريخ العالم أو البشرية، وهذا التاريخ الأخير لا يخرج عن تاريخ الكون والخليقة.

وبقول أدق، أن النظرة الإسماعيلية تجاوز هذا الارتباط «الطبيعي» بين الجزء والكل، وتقلب الأمور رأساً على عقب، وترى أن الجزء ، الذي هو التاريخ الإسماعيلي، أصل للكل، وهو تاريخ الوجود منذ نشأة الخليقة وابتدائها. وهي لا تكتفي بالبدء دون المعاد، إذ ترى أن الآخرة، مصير الناجين رهن بالحياة الدنيا.

مثال ذلك ما نقرأه لدى الداعي (حسن بن نوح) إذ بدأ «بذكر شيء من التواريخ القديمة تواريخ الأنبياء والملوك الماضية إلى هجرة نبينا محمد (ص) ليستشف قارئ كتابه نسيم جميع أجناس الأزهار. ولا يتكلف لحمل الأخشاب والعيدان من الأشجار، أعني بها الكتب المطولة في السير والأخبار». ولما غاص في بحور كتب التاريخ والسير المطولة وجد فيها «كثير الاختلاف وبعض الائتلاف» ولذا «رجع إلى الالتقاط من كتب أولياء الله الفائقة، والاجتناء من أزهار التواريخ المونقة الرائعة». يقول: «فلم أجد فيها اختلافاً ولا تناقضاً»، وثبت وتبين لي مصداق قول الله تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

وعلى هذا النحو نلقى معيار الصواب في المراجع التاريخية مائلاً في حقيقة قائليها، بدل الرجوع «الانتقادي» إلى معطيات الحوادث والمؤسسات وفحصها اجتلاء لحقيقتها الصحيحة الموضوعية. فالمؤرخ الإسماعيلي يلفظ كثير الاختلاف في كتب التاريخ الذائعة العادية. غير الإسماعيلية. ويرجع إلى كتب أولياء الله الفائقة، وفيها زهار التواريخ المونقة الرائقة، ونقطة الاستناد الرئيسية ، بل الوحيدة، في صحة ما جاء في الكتب الإسماعيلية المصطفاة أنها صادرة عن الله ذاته، ولو كانت من عند غير الله لوجد الناس فيها اختلافاً كثيراً.

الإمام مصدر المعرفة التاريخية

إن صحة المضمون التاريخي تقاس إذن بصحة الكتب التاريخية المستمدة من الأئمة ،

---

(٣٠) ريمون رويه: الاضرار العقائدية. باريز ١٩٧٢ ص٢٨٠.

أولياء الله، ومن سلامة المنطق بعد هذه المقدمات أن يعتمد المؤرخ التاريخي كتب أولياء الله وحدها معياراً للصدق في التاريخ، ومنهلاً للمعرفة «النقية» من شوائب التناقض والاختلاف. يقول الداعي (حسن بن نوح): «فاخترت من الكتب المذكورة (أي من المراجع التاريخية المعروفة لدى عامة الناس) ما كان موافقاً لكلام أهل الحق، وتركت المختلف فيه مما جل ودق».

ثم يقول: «ومن أراد الزيادة والوقوف على أسرار أولياء الله وأسماء الأئمة... فليرجع في علم ذلك إلى منبع النور، والجبل الطور، والبيت المعمور، ومقام الظهور، وحدة مولانا صاحب عصرنا وإمام زماننا المستور، داعي الجزيرة اليمنية، وأمين الدولة الفاطمية... فاستعذب الماء من شرب من رأس العين، ونجا من التابعين المستجيبين أمثالنا من نسب الفضل والعلم والشرف لأهله، وأقر لنفسه بالتقصير، وترك العجب والمين»[٣١].

وعلى هذا ينجو المؤرخ بالشرب من ماء رأس العين، ويتوسط لذلك بحجة مولانا صاحب العصر وإمام الزمان.. المستور.

الطريق واضحة، والدرب جلي في طلب الحقيقة التاريخية، بل حقيقة الفضل والعلم والشرف جميعاً من أهل الفضل والشرف والعلم . وهذه المعرفة الشاملة، تاريخية وغير تاريخية، أتراها ثقافة مجردة جوهرها التاريخ، أم أنها وسيلة خلاص، ومعيار سلوك ونجاة؟

يقول (ريمون رويه) في حديثه عن امتزاج السياسة بالدين عبر التاريخ: لا يزال القادة الدينيون العظام وحدهم أكثر أهمية من الساسة الكبار، وذلك لأنه مقدسون، أو تقريباً. ولذا ينزع كبار الساسة إلى اللحاق بركبهم بإضافة السلطة العقائدية إلى السلطة السياسية . إن (ماو) هو بآن واحد (كونفوشيوس) و(محمد) و(إمبراطور الصين). وإن (الإسكندر) و(نابليون) و(هتلر) و(لينين) و(ستالين) كانوا أنصاف آلهة. وإن «عبادة الشخصية» أقرب جداً إلى جوهر السياسة من الديموقراطية. وإنما تكتفي الروح الديموقراطية بتخفيف حدة «عبادة الشخصية». وهذه العبادة على الدوام حاضرة وكامنة. وقد تجلى ذلك في جنازة (ناصر) و(ديغول) في الآونة الأخيرة، على الرغم من المفاجأة العميقة التي أصيب بها (المفكرون)[٣٢].

فهلا يؤيد التاريخ الإسماعيلي ونظرة الإسماعيلية إلى رجال التاريخ أن تكون عبادة الشخصية حاضرة وكامنة على الدوام، وأنها أقرب جداً إلى جوهر السياسة من الديموقراطية، وأن الروح الديموقراطية تكتفي بتخفيف حدة هذه العبادة؟

إن امتزاج السياسة بالعقائدية الدينية جعل الشيعة عامة، والإسماعيلية خاصة، تنبذ مبدأ الانتخاب إماماً في أثر إمام، فهل يصح القول بعبادة الشخصية التاريخية في الفكر الإسماعيلي؟

---

(٣١) منتخبات إسماعيلية ص٢٤٥.

(٣٢) المصدر السابق ص١٧١.

تقديس الأئمة

إن الإمام ، في نظر أتباعه، هو «الإنسان الكامل التام، الحاد للحدود، الظاهر للوجود، المتعالي عن الكيف، البعيد عن الأعين والزمان والمكان. فهو أول الفكر وآخر العمل، اتصلت بنفسه المقدسة الكلمة الإلهية فأصبح الصورة الشرعية في عالم الدين، فهو المقدم على عالم الخلق كله، والمقدم على عالم الدين لأنه أصله ومبدأه وأساسه، ولا يكمل الوجود إلا بوجوده»[٣٣].

إن مراتب الوحدة ثلاثة أقسام: وحدة شكلية هي الإمام من حيث الشخص الكامل في العالم الجثماني، ووحدة معنوية هي العقل الكلي في العالم الروحاني المجرد عن العالم الجسماني، ووحدة معنوية حقيقية هي الذات المطلق المنزه عن سائر الموجودات وعن الأسماء والصفات. والإمام هو أداة الباري من حيث الوحدة الحقيقية إذ كان مجرداً عن الجسم، فإذا ظهر الإمام بصورة الجسم كان اسماً من أسماء الله وإذا اتحدت صفاته العليا كان الله في الحقيقة، وكذلك الإنسان فإن النفس المؤمنة العلامة بالقوة، الحية بالذات، إذا اتحدت كانت هي والإمام شيئاً واحداً، وإذا كان الإنسان بصورة الجسم كان شيئاً آخر غيره، لأن المادة المتصلة بالإنسان من الأمام هي عين المادة المتصلة من الله تعالى، وعلم الله هو أداة الله، وعلم الإمام هو أداة الإمام[٣٤].

فالفكر الإسماعيلي إذن ينظر إلى الإمام نظرة إجلال تسمو به إلى أعلى مراتب الشرف، والعلم والفضل، بل إن هذا الإجلال تقديس يرقى إلى ما يجاوز «عبادة الشخصية التاريخية»، بمفهوم عصرنا، ومما جاء في «خطبة البيان» الشهيرة، إن صح ما في هذه الخطبة كله، القول المنسوب إلى (علي بن أبي طالب): «أنا الأول والآخر، أنا الباطن والظاهر، أنا البرق اللموع، أنا السقف المرفوع، أنا ولي الأنبياء، أنا حجة الحجج... أنا الفرقان، أنا البرهان، أنا إمام المتقين، أنا وارث المختار، أنا مبيد الكفرة، أنا نور الأئمة البررة... أنا الله، أنا وجه الله، أنا أسد الله، أنا سيد العرب، أنا كاشف الكرب، أنا الذي قيل في حقه: لا فتى إلا (علي).....»[٣٥]

ورب من يعتقد أن هذا التقديس الأقصى غلو عاطفي ناشئ عن محبة الاتباع للإمام، ومن شأن كل عاطفة محبة أن تمضي إلى الأطراف القصية، ومع اعترافنا بالمحبة والعاطفة وبتأثيرهما، فإن العقل هو الذي يمنح من الفكر ما يبرر مضيها إلى رتبة التقديس وما فوق التقديس. وقد فلسف الإسماعيلية عاطفتهم حيال الأئمة وجعلوا وحدة الأئمة وحدة الإمام، وسموا من الوحدة الشكلية التي هي الإمام من حيث الشخص الجثماني، إلى الإمام باعتباره أداة الباري من حيث الوحدة الحقيقية، فلا عجب أن يتصف الإمام بالقداسة وبالعصمة وأن يكون هو الشفيع يوم الحساب والمعاد.

---

(٣٣) مصطفى غالب : تاريخ الدعوة الإسماعيلية. ص١٣.

(٣٤) المصدر السابق ص١٤.

(٣٥) المصدر السابق ص٤٤ وما بعد.

معضلة العصمة والفهم التاريخي

لقد قيل في تعريف العصمة أنها خاصة في نفس الشخص أو في بدنه يمتنع بسببها صدور الذنب عنه. واتفق الباحثون بوجه الإجمال على وجوب عصمة الأنبياء عن تعمد الكذب فيما دل المعجزة على صدقهم فيه كدعوى الرسالة وما يبلغونه من الله إلى الخلق وفي جواز صدور الكذب منهم فيما ذكر سهواً ونسياناً خلاف بين العلماء...

ولكن عصمة الأئمة في نظر الفكر الشيعي الإمامي عامة، وفي نظر الفكر الإسماعيلي خاصة عصمة مطلقة، وهذا ما يطرح في ذهن غير الإسماعيليين بوجه خاص التساؤل عن فائدة التاريخ في تنوير الأحكام بإذكاء الروح الانتقادية، وبالتحرر من السلطة والفكر الخرافي والأسطوري، والانطلاق من نسبية الحكم على الأقوال والأفعال.

إن مشكلة العصمة تطرح معضلة اتساقها مع الفكر العقلي، والفهم التاريخي. فعلى الاتباع الإيمان بعصمة الإمام ولو بدأ من ظاهر عمله ما لا يفهمه العقل على أنه قول سليم، وسلوك شرعي. ويبقى من واجب الاتباع اللجوء إلى السكوت عما لا يفهمه عقلهم فهما عقلياً، أو اللجوء إلى السكوت والطاعة بعد تأويل ما يبدو. خطأ. إنه في الظاهر قول غير سليم، وفعل غير مشروع.

التقية واضمحلال المعنى التاريخي

ومن أقوى المبررات الشيعية الإمامية والإسماعيلية القول بالتقية سبباً لما قد يستغلق على العقل فهمه فهما مباشراً من أقوال الأئمة وأعمالهم. ومما قيل في هذا المبدأ «تسعة أعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له، والتقية في كل شيء إلا في النبيذ والمسح على الخفين». وقد أفاد هذا المبدأ الفائدة كلها في تفسير أعمال كثير من الأئمة، كالقول بأن سكوت (علي) على (أبي بكر) و(عمر) و(عثمان) كان تقية، ومصالحة (الحسن) (لمعاوية) كان تقية، وإن التفاوت بين ظاهر أهل الظاهر وباطن أهل الباطن، وكتمان الثاني عن اتباع الأول، كل ذلك تقية ومداورة تفرضهما الظروف التاريخية «غير المؤاتية».

«إن الدنيا عند أولياء الله أهون من الذر ومقداره، ومن الهباء المنبث وغباره، ولهم فيها نظر وتدبير فيما يأتون ويدبرونه في كل دهر وزمان بما يرون بأنهم يصلحون، فالحذر عباد الله الحذر من إنكار ما ترونه وتشاهدونه من أمرهم وفعلهم وأغضائهم وإنكارهم وتصرف الأحوال بهم وعن أمرهم بألسنتكم أو بقلوبكم أو بخواطر أنفسكم»(٣٦).

وثمة تفسير طريف «علمي» لا يعتمد التأويل بالتقية وهو يوضح، بلغة الرياضيات سبب قبول الناس، إن لم نقل الاتباع، فهم الحوادث على غير وجهها «العقلي» البسيط. يقول الفيلسوف (ريمون رويه) في كلامه عن تأثير المبعدة التاريخية أو الاجتماعية بالنسبة لمعاصري الإمام.

---

(٣٦) القاضي النعمان بن محمد: كتاب الهمة في اداب اتباع الأئمة. تحقيق د. محمد كامل حسين ص١٢٩.

ولاسيما في دور الستر، وعن المبعدة التاريخية كلما كرت الأيام) يقول: «إن هذه المبعدة تحدث لا مبالاة حيال المعنى هي أشبه بالكمية الموجهة في الرياضيات حين ترفع إلى القوة الثانية: إن اتجاهها يبدو حياديا... لقد اعتبر (نابليون) أسطورة، واعتبر إخفاقه ورجوعه من الحملة المصرية فتحا مجيدا، وأن أي مجال يغطي المجالات الأخرى يصبح لا مبالياً بالمعنى الخاص بتلك المجالات التي تعطيها ويسخرها. السياسي الرامي إلى الانتظام الاجتماعي يرضى بأي دين. ولقد لبس (بونابرت) مسوح المسلم في القاهرة. ومن الجائز قبول أية سياسة لأي نظام، قبول أي «سيف» يسلط فوق رؤوس المحافظين الهلعين»[٣٧].

سلاح الشفاعة والخلاص

أجل، إن الدين الطاعة، وفي أديان الخلاص سلاح ماض يؤيد واجب المؤمن بالطاعة، مع أمل مواكب بتجاوز العقاب على الأخطاء والمعاصي. وقد ميز الباحثون أنواعاً للشفاعة أولها الإراحة من هول الموقف وطول الوقوف وهي شفاعة عامة تكون في المحشر حين تفزع الخلائق إلى النبي، والثاني: إدخال قوم في الجنة بغير حساب، والثالث شفاعة لقوم استوجبوا النار، والرابع التشفع لمن أدخل النار من المذنبين والخامسة شفاعة لزيادة درجات أهل الجنة في الجنة.

وقد أفاد الفكر الإسماعيلي من الشفاعة وربطها بالإمام، ولاسيما الإمام السابع سابع الأشهاد وشفيع يوم المعاد. وتم له بذلك الجمع بين أماني السياسة في إرجاع الحق إلى أهله، وعودة الإمامة والخلافة إلى أصحابها الأئمة الشرعيين، وبين أماني الفوز بالسعادة في الدارين، ولاسيما في دار الخلود، وهذا كله يجعل مفهوم التاريخ في الفكر الإسماعيلي يرادف معنى الوجود بدءاً والوجود مصيراً، أي الوجود على النحو الإسماعيلي سرمداً.

خاتمة

إذا صح أن توسط المنطق العقائدي (الايديولوجي) بين الفكر والوقائع ينجب منظومات ذهنية معقدة تشتمل على عناصر شتى بعضها، (إن لم نقل أنجعها) هو أقرب إلى غير الوقائع، أقرب إلى نتاج العقل والإعراب عن الأماني، فإن العقائدية الإسماعيلية التي تتوسط، بمنطقها التأويلي، بين وقائع التاريخ الإسلامي، والتاريخ الإسماعيلي جزؤه، وبين الفكر الانتقادي الموضوعي، أن هذه العقائدية الإسماعيلية تنجب مذهباً معقداً لو عمدنا إلى مقارنته بالمفاهيم الحديثة لألفيناه ينوس بين جدلية حتمية مثالية، وجدلية حتمية سياسية، قد تغمر اعتبارات اجتماعية واقتصادية، وبين طوبائية مثالية أو (أوكرونية) تاريخية.

إن المذاهب التي تنطلق من العقائديات الجدلية، مثالية أو مادية، هجلية أو ماركسية، تقر

---

(٣٧) الاصرار العقائدية القسم الأول. الفصل الأول.

مبدأ الحتمية وترسم للصيرورة التاريخية مستقبلاً محدداً سلفاً على نحو يعكس أو يتمم نقائص الصيرورة السابقة في الماضي والحاضر. وقد أطلق (توماس مور) سنة ١٥١٦ كلمة (طوبائية)[٣٨] على بلد خيالي وصف شعبه بالحكمة والسعادة والاستمتاع بمؤسسات وأوضاع اجتماعية مثلى. وسبقه إلى ذلك في الثقافة الإسلامية (الفارابي) وغيره من صانعي المدن المثالية، ونحت الفيلسوف الفرنسي (شارل ونوفيه)، قبل ما يناهز المائة عام (١٨٧٦) لفظ (أوكرونية)[٣٩] أو الطوبائية في التاريخ، وتصور نمو الحضارة الأوربية على نحو يغاير ما حدث في الواقع، وذهب الباحثون إلى أن كلمة (أوكرونية) تنفي الحتمية وتضمر حرية التاريخ في وقوع حوادث على نحو يغاير ما وقع بالفعل.

وقد رأينا الفكر الإسماعيلي ينظر نظرة تنهيج جدلية سبعية إلى تاريخ الإسماعيلية، بل إلى تاريخ العرب والمسلمين، ثم إلى تاريخ البشر والكون، لربط ذلك كله بالاستجابة لتعطش أحدثه غياب محمد (ص) بعد وفاته، وما زال هذا التعطش مفتاح فهم الوقائع التاريخية جميعا، لارتباطه بفكرة الأمانة، أي الرئاسة السياسية، ويتعاقب الأئمة في دور الستر والظهور على قدر سواء. يقول مؤلف «أعلام الإسماعيلية»: «لعل الحادث التاريخي المهم الذي بلغت به الفكرة الإسماعيلية حد الوضوح الكامل من حيث الشكل والمبنى يعود إلى بعث النبي الهادي (محمد) رسولا إلى العالمين... وقد أحدث غيابه، بعد وفاته، فراغاً جعل المسلمين يتطلعون بشغف إلى شخص له من القدرة العلمية والتبصر الحكيم ما يستطيع أن يسد فراغ تعطشهم... (وكان هذا الشخص) هو (علي بن أبي طالب)...»[٤٠]. إن الإسماعيلية (النزارية) أو (الآغاخانية) ما تزال تمضي في درب إرواء هذا التعطش ماثلاً في شخص الإمام (كريم اغاخان) الرابع المتوج في ١١/ ١٩٥٧/٧ وما تزال الإسماعيلية (المتعلية) أو (البهرة) أو (الطيبية) تمضي في الدرب ذاته وتقول بإمامة الإمام المستور (أبي القاسم الطيب بن منصور).

إن المؤلفات الإسماعيلية تدل على أن الإسماعيليين ينظرون إلى دعوتهم نظرة «تعطي الدليل على أنها قديمة وقد رافقت الكون منذ نشأته الأولى وكيف طرد آدم من الجنة لكونه أفشى أسرار الدعوة الإسماعيلية»[٤١] ويوضح الداعي الإسماعيلي (الخدواند عزيز شاه) هذا الإلماع بقوله: إن (آدم) الأول صورة الرحمن، وإن (الحارث بن مرة) هو (إبليس) الذي كان حجة من حجج الإمام مطلعاً على الحقائق والبيان، فحسد (آدم)، ولما علم ذلك الإمام طردهما من دعوته، وسد عنهما باب رحمته، حتى أعلن (آدم) توبته وصفاء نيته وإخلاص حقيقته فتاب عليه وقربه واستتر الإمام وقام (آدم) بالشريعة...[٤٢].

---

(٣٨) UTOPIE

(٣٩) UCHRONIE

(٤٠) ص١٥.

(٤١) مصطفى غالب: تاريخ الدعوة الإسماعيلية ص٢٧.

(٤٢) المصدر السابق.

ومرة أخرى نجد زلة (آدم) منطلق التاريخ. وما إفشاء سر الدعوة الإسماعيلية حيث لا يجب إلا إفساد خطة خطير يفسره بكل قوة نجوع الاهتمام السياسي في العقائدية الإسماعيلية، هذا النجوع الماثل في قول الإمام الصادق (جعفر بن محمد): «أشرك من ترأس علينا. إن الرئاسة لا تكون إلا لنا»[٤٣].

إما أن تكون السياسة «المتطورة والتقدمية» عنصراً ناجعاً في تطور العقائدية الإسماعيلية، فيتجلى من قراءة الأسطر الآتية:

إن الإسماعيلية قصيدة فلسفية، ولكنها تتطور مع الزمن وتتكيف معه. «فهي تدعو إلى مبادئ اشتراكية ترمي إلى أحداث ثورات شعبية وعمالية وزراعية وصناعية ضد الحكام والملاكين الكبار والإقطاعيين والأثرياء»[٤٤]. وإنه يقول آخر، انطلاق الفكر الوثاب في هذا العالم الامتناهي، أو وثوب الروح نحو مثلها الأعلى!

وبعد، هل نستطيع الاقتصار على وصف النظرة الإسماعيلية إلى التاريخ بأنها عقائدية جدلية مثالية أو حركة سياسية اشتراكية، أو طوبائية أو أكرونية، أم هي هذا كله، أو شيء آخر غير هذا كله؟ إلا أن التأويل المفتوح في فهم التاريخ يجاوز كل تأويل.

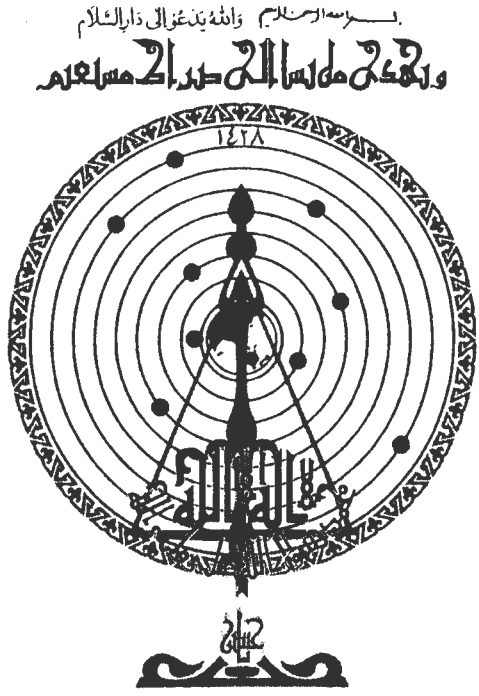

(٤٣) كتاب الهمة في آداب اتباع الأئمة للقاضي النعمان بن محمد. ص١٣٠.

(٤٤) مصطفى غالب: مقدمة كتاب الينابيع للداعي يعقوب السجستاني ص٢٦ . ٢٧.